رسائل الاصدقاء

من بركات الأدب

. . . عُدتُ أمس صديقاً أنهكه رسُّ المرض حتى أذواه . فما ترى إذا رأيتَ ، سوى أعظُم ناتئة تهم أن تخرج ، ولا تسمع إذا سمعتَ غير أنين خافت موجع كأنه ودع الجسم للروح . فتلقّاني بابتسامة كأنها الزهرة الذابلة ، وبدمعة كأنها اللؤلؤة اللّموع ، وأدناني من سريره وبكى ، فواسيتُه بالأحاديث ، وخففت عنه بالأهازيل ، فلم يسكن اضطرابُه ، ولا خفت آلامُه :

ثم رأيته يتململ فى فراشه حيران ، ويشير إلى صدره أسوان ، ويقول : « إنى لأحسّ ههنا سكيناً تمزّق وتخرّق . أفلا ترقينى ؟ ... »

فقلت لنفسى : « هذا أول الهذيان ثم يتبعه الجنون ! »

وقلت له : « ومتى عهدتنى ، عافاك الله ، صاحب رقية ، أرقى بها الناس لتسألنى ما سألت ، وتسترقينى ؟ »

قال : « سألتُك بالله وبودّك بى أن ترقينى . لقد كان أبوك شيخ المقرئين ، وكان رجلاً مباركاً كأنه مَلَك كريم ؛ وجدُّك كان شيخاً صالحاً ، لم تشغله تجارته الواسعة عن التقوى . ثم إن الولد سر جدّه وأبيه ! »

وارتبكتُ ، ورأيته يمسك بيدى فيذرف دمعة ، فتساقط عليها فتلذعنى ، ثم يضعها على صدره ويغمض عينيه

وتكلّفتُ الجد والوقار ، وهَمَمْتُ أن أقرأ له ، ولكن مرّت على خاطرى خطرة بارعة ، فوجدتُنى أردّد على مهل قطعة لصديق « الزيات » عن الربيع ، كنتُ حفظت فقراً منها :

« ... هذا ربيعكما يا فتاتى الفاتنة ، ويا طفلتى الجميلة : صفاؤه من سلام النفس يفيض بشراً فى العين وطلاقة فى الوجه ؛ ورواء من ألق الشباب يشعّ نوراً فى السماء وسروراً فى الأرض ؛ ورخاؤه من نعيم الطبيعة ينشر عطوراً فى الجو وزهوراً فى الروض ؛ وانتشاؤه من رحيق العيش يشيع لذة فى الحس وبهجة فى القلب ؛ وهدهدةٌ على أرجوحة الحب تذهب مع الأمل الباسم وترجع مع الرضى السعيد ؛ واتحاد الجمال البشرى بالجمال الإلهى الماثل فى وشاء الحقول وأغواف الخمائل وأعطار النسيم وألحان الطير وأنفاس الأحبة . فأين بالله ربّكما أجد الفرق بينكما وبين مَلَكين يعتنقان فى نشوة الخلد ويأتلقان فى وَضاءة الفردوس ؟ أفى النظرة الساهمة ، أم فى البسمة الحالمة ، أم فى الفتنة الناعمة ، أم فى الحنوّ الخليق بالأمومة ، أم فى الصبا الذى يضوع بريح الجنة ... »

وإنى لماض فى ترداد ما أذكره ، أهمهم تارة ، وأبين مرة ، وأخفى أخرى ، وأغمض عينى تارة ، وأحدّق فى صاحبى طوراً ، حتى رأيته قد فتح عينيه وصحا ؛ وإذا بالبسمة ترفّ على ثغره الذابل ، وبالرضى يشيع فى وجهه الجاهم ، وبالهدوء يسرى فى جسمه النحيل ، وإذا به يقول بنبرة حنون : ما أبرع رقيتك ! أخبرنى بربّك ما ذا قرأت لى ، وأى رقية هذى ؟ كان قلبى خافقاً فهدأ ، وكان جسمى مضطرباً فسكن ، وكان عقلى ساهماً فثاب . ألم أقل إنك صالح ورفيك صلاح ؟ علّمنيها أرقِ بها نفسى ! ...

وانفجرت ضاحكا ضحكاً يدوّى ، وحرت فما أدرى ما أقول . فنظر إلى دَهشاً وسألنى : ما ذا يضحكك ؟ ولم لا تضنّ علىّ بها ؟ ...

قلتُ هذى رقية لا يعلم سرها أحد ، ولا يرقى بها أحد ، ولا أعلمها أحداً !

وأخذتُ أعتذر ، وأخذ يُلحّ ، وأنا أضحك فى نفسى ، وأضحك منه . فلما رأيته قد ضاق صدره قلت : اكتب رقيتى :

« هذا ربيعكما يا فتاتى الفاتنة ، ويا طفلتى ... »

فحدّق بى وقال : « فتاتك وطفلتك ! ما ذا أصابك ؟ لسكأنى أنا المعافى وأنتَ المريض ، أبهذا رقيتنى ؟ »

قلتُ : « نعم ! ألححتَ علىّ فلم أجد ما أرقيك به غير رقية من رُقى (الزيات) جرت على لسانى ... »

فضحك ضحكا متواصلاً ، ونهض من فراشه واثباً ، وأخذ يقول : « ارقنى ... فما أحبّ هذه الرقية إلىّ . إن فيها سحراً ... وإن من البيان لسحراً ! »

وكانت رقيتى مبدأ شفائه ، فلمل الله أن يُمنّ عليه بالصحة والعافية ... ببركات (الزيات) !

(دمشق) « الربيع »